

من فصوص العصر الفاطمي :

## خاتمة حياة

الأستاذ أحمد أحمد بدوي

خذ يا نصر ، فليس هذا بكثير عليك .

قال ذلك خليفة مصر الظافر بأمر الله وهو يقدم إلى نصر ابن عباس عشرين طيقاً من الفضة مملوءاً كل واحد منها بـبشرين ألف دينار . فأجابه نصر : شكراً يا مولاي ، إنني لم أزد على أن أرحمكم من وجه كنتم تبهضونه ، وإن سرور مولاي هو كل ما أسمى إليه وأبغيه . قال الخليفة : ذلك قليل يا نصر ، لقد قضيت أكثر من أربع سنين وأنا أعمل هذا الوزير شجى في حاق ، وقذى في عيني ، ومن الغريب أنه كان يسمى نفسه الملك العادل ، وأى ظلم أكبر من سلب حق واغتصاب سلطاني ! هذا أول يوم أشرف فيه بمجد الملك وعظمة الخلافة ، وستكون تلك الليلة تذكاراً لهذا المهدي الجديد السعيد .

وما إن أقبل النيل حتى كان قصر الخلافة جوهرة غارقة في النور ، وجاء الندماء بمنون النفس بلبلة سارة وساعات شهية ، ولم تلبث جنبات القصر أن تجاوبت بأصداء الفناء ، ودارت الساقيات الجيلات بينت السكروم تلعب بالرموس وتفعل ما تشاء بالأبواب ، ولما انقضى من الليل أكثره تفرق الجمع ، ولكن الخليفة لم يرد أن تنقضي تلك الليلة من غير إنعام جديد على قاتل وزيره ابن السلال ، فوهب نصر أمدينة قلوب ، وأوصاه أن يبكر في الحضور إليه ، فإنه ما كان يصبر على ليمد عنه .

خرج نصر فرحاً بما أعطى ، ولما قابل أباه عباساً ( وقد سار وزيراً ) أخبره بأمر هذه الحبة ، فإزداد أسامة بن منقذ أحد

فقال له الشيخ عبد الجبار وقد غلى دمه وهو لا يتلى إلا في السلم : سبحان الله يا أخي ! لماذا تتجهمني هذا التجهم ، وتعنفني بهذا التعنيف ؟ من قال لك أنزل ؟ هل كنت مغلوباً فانتصرت لي ، ومكروباً ففرجت عني ، أو ضعيفاً فأشفت عني ؟ وهب الأمر كان كذلك ، فهل بعد خُرْجى مأرب ، أو بعد سمارني مراكب ، بعد رومي حياة ؟

بحرسيح والزيات

جلساء الوزير على أن قال : « ما هي في مهرك بكثير يا نصر » . وهنا أربد وجه الفتى ، وغلي الدم في عروقته ، وأقبل يدافع عن نفسه في حماسة وقوة ، حتى قال له والده : « نحن لا نصدق يا بني ما يقال ، ولكن الناس يلوكون عرضك وعرض الأمير ، فبالله إلا غلبت هذا المرض . إن جمال الوجه كثيراً ما يجلب على صاحبه الأقاويل ، واقد خجلت لكثرة ما سمعت عنك وعن مولاك » . فخرج نصر وقد صمم على أمر .

لم يبد على صلة الصديقين فتور ، بل اطردت كما هي : بقضى نصر معظم وقته مع الخليفة ، حتى إذا كان يوم اشتد فيه إقبال الظافر على نصر ، قال له نصر : « لقد نلت منك يا مولاي كل أنواع التكريم ؟ فهل يضيف سيدي إلى نعمته تشريفه إياي في وليمة خاصة بنا في منزلي الليلة ، وسوف أفتحي مولاي بما يذله من جيد الفناء ، وعتيق الخمر ، وأجمل النساء » . ولم يكذب نصر - يسمع من الخليفة ترحيبه بالدعوة وقبولها قائلاً له : « ذلك هو العيش يا نصر » ، حتى خرج يمد للأمر عدته .

وفي الليل الساجي ، والظلام الذي لا تقيين فيه شخصاً السائر ، خرج الخليفة الشاب من قصره مستخفياً ، لا يصحبه غير خادمين ، ولا يكاد يتميز عن حوله من الناس ، حتى إذا دخل منزل مضيفه ، واستقر به مجلسه ، انقض عليه وعلى أحد خادميه من أعدم نصر للانقضاض ، وبعد بضع دقائق كانت جثة الخليفة ملقاة في بئر هناك ، ومضى نصر بحجر والده بما فعل !

تنفس الصبح فشهد الناس في البكرور الوزير عباساً ميمماً قصر الخلافة يتيمه ألف جندي شاهرون سلاحهم ، ودخل القصر ، وطلال جلوسه ، فاستدعى زمام القصر ، وقال له : « إن كان أولانا ما يشغلنا عنا في هذا اليوم عدنا إليه في الغد » ؛ فمضى الزمام وهو حائر يبحث عن الخليفة في كل مكان ، ثم ماد بقول لعباس : « خرج الخليفة البارحة لزيارة ولدك نصر فلم يمد ! فقال عباس : « تكذب يا عيد السوء ! لقد دبر أخواه قتله حسداً له على الخلافة ، وانعقم على هذا القول » ؛ فقال الزمام : « ماذا لله ! » ؛ قال عباس : « فأين هما ؟ » ؛ فخرجا إليه ، فسألها عن أخيها ، فأنكرت معرفة مكانه ، فأمر غلمانا بقتلها ، فقتلا بين يديه ! وفي ليلة حزينة نقل المم فيها على عباس وابنه ، فقد آذاها أن يشتركا في قتل ابن مصال وزير الظافر الأول ، وقتل ابن السلال

وأجمعوا أمرهم بينهم على الزحف السريع إلى القاهرة ، وانضم إليهم قبائل كثيرة من العرب والسودان ، حتى إذا غلبوا من القاهرة لبسوا جميعاً ملابس سوداء ورفعوا رايات سوداء ، ونشروا شعور السيدات على أطراف الرياح ، وخرج أهل المدينة لاستقبال الجيش الزاحف هائجين بالنار من القائلين .

لم ينتظر نصر ووالده ومن معه حتى يدهمهم عدوهم في مقر دارهم ، بل جمعوا ما بقي لهم من رجال ، وجملوا كل ما يملكونه من متاع ومال ، ولما جن الليل فروا من القاهرة مهطمين ، غير أن عيون أخوات الظافر سرعان ما نقلوا خبر فرارهم إليهن ، ففكرن في الأمر ملياً : هل يتركن الأسير يفلت ؟ وهل يدعن الانتقام ممن حرمهن الأخ الصغير والأخوين الكبارين ، وأهان عرش الآباء والأجداد ؟ أو يكفنهن بأن يذهب العدو ويدعهن أحراراً في بلادهن ؟ وهل يأمن جانب هذه الأفعى وهو رأس المؤامرات وأساس الفتن والدسائس ؟ إنهن لا يأمن جانبه ولا يعرفن قصده ولا نواياه . ومن يدري ما إذا تكون النتيجة إذا ترك حياً ، فربما كان في بقائه خطر جديد يهدد الأسرة والعرش . والآن ، لا بد من التفكير السريع قبل أن يطير المصفرور من الففص ، وتفلت الفرصة من اليد . سهرت نصر ووالده إلى الشام ، وسيمران بأرض الصليبيين في طريقهما ، وإذا كان الصليبيون أعداء مصر فلا بأس من الاستعانة بهم في القبض على القائل الفار ؟ ولما كان الأمر يتطلب سرعة في التنفيذ ، أرسلان رسولاً يثقن فيه كل الثقة ، وطلبن منه أن يسابق الريح حتى يصل إلى هدفه قبل أن يفتر نصر .

وجد القائد الصليبي لقائمة عسقلان فيما عرض عليه الرسول المصري ما يفريه بمقابلة نصر وأبيه ، فالقائد مطمئن إلى النجاح والظافر بما مع الفارين غنيمة باردة وبما وعدت بتقديمه أخوات الظافر من المال ، فأصدر أمره إلى الجند بالتأهب لمقابلة الفارين . وبينما كان نصر وعباس يمتان النفس بكبار الآمال أبصر جند الصليبيين يحيطون بجمعهما ، فلم يجدا بداً من الدفاع عن أنفسهما في معركة خاسرة ، مات فيها عباس وابن له صغير ، بينما حرص الجند على أن يظفروا بنصر حياً ليثابروا — كما وعدوا — بأجزل الصلات ، فلما سقط في أيديهم وضعوه في ففص من جديد .

الرك سائر إلى القاهرة ، وفؤاد نصر قد ملئ بما شغله من

وزيره الثاني ، وأن يقتلا الخليفة وأخويه ، ثم يبحثا حولهما فيجدوا السطة التي جدا في الحصول عليها تكاد تفلت منهما وتمضي ، فأقبل أحدهما على صاحبه ودار بينهما حديث :

— أرايت يا نصر : إن الأمر لم يصف لنا كما كنا نؤمل ، وإن الجمهور لم يجز عليه ما أحكمتاه من حيلة وتديبير !

— الذنب في ذلك ذنب رجالى يا أبى ، فإن خادم الظافر الذى أفلت من يدهم هو الذى أذاع سر الجريمة ، وكشف ما كنا نحرمص على ستره .

— وهذا الشعب الذى ألفتنا منه الطاعة أصبح ثائراً متمرداً يسمنا أتى سرنا أوجع الكلام وأحط أنواع السباب ، يتنادى بالنار ، ويهتف بالانتقام .

— ليت الأمر يا أبى وقف عند الملتاف والكلام ، فإن الفتنة قائمة ، والأنصار الذين كنا نعتمد عليهم قد انفضوا من حولنا ، وأصبحت لا أرى إلا وجوهاً عابسة ، ونفوساً متبرمة ، وجواً ينذر بمأسفة .

— لقد كنت يا بنى سائراً بالأمس فرايت هاوناً أتى على ، ولولا حظى الحسن لحطم رأسى . وأول أمس أتى على ماء ينلى كاد يجرقنى لولا فضل الله !

— وهل جاءك نبأ طلائع بن رزبك ، لقد بعث إليه الأمراء يستنجدون به لياخذ بثأر من قتلناه . أما أخوات الظافر فقد بعنن لايه بشعورهن في كتب سوداء ، وأظلمنى جاسوس لا يزال مخلصاً لنا على قصيدة طويلة أرسلها إليه القاضى الجليلس يحثه فيها على الانتقام ، ولا إخال طلائع إلا متمهزاً تلك الفرصة النادرة ، وقادماً إلى القاهرة ليجلس على كرسى الوزارة الذى ينتظره ، ويثأر منا إن ظفر بنا .

وهل تنتظر حتى يظفر بنا ؟ لا بد من الحرب يا بنى !

— وإلى أين يا أبى ؟

— إلى الشام عند نور الدين محمود ، وستظلمه على ما وصلت إليه مصر من الضعف والانهلال ، وتزين له فتحها ، وتكون له عمالاً عليها ، وسوف يهيد لنا الطريق إليه الأمير أسامة بن منقذ رفيقنا في رحلتنا .

• • •

حث الرسل المظلمة إلى طلائع فانتشار من حوله من رجاله ،